المقدمة

في سنة 1961ميلادية، أصدر ساطع الحصري (أبو خلدون) كتاباً عن ابن خلدون (1332-1406م) تحت عنوان «دراسات عن مقدمة ابن خلدون»، استهله بقوله: «دراسات عن مقدمة ابن خلدون..أسطر هذه الكلمات، وكأني أسمع همس معترض يعترض عليّ، قائلاً: دراسات عن مقدمة ابن خلدون؟!..لماذا اخترت هذا الموضوع المبتذل المعاد؟ إن مقدمة ابن خلدون منتشرة بين أيدي جميع المتنورين من الناطقين بالضاد.. فلا نتعدى الحقيقة إذا قلنا: ما من مفكر ولا مؤرخ عربي، حظي من كثرة الذكر، وذيوع الصيت بما حظي به ابن خلدون»[1].

هذا كلام يفهم منه، أن الحديث عن ابن خلدون، ومقدمته، صار من كثرة درسه، ونقده، وانتشاره، وذيوعه، حديثاً مكروراً مبتذلاً، في النصف الثاني من القرن العشرين، وما ذاك إلا لأن ابن خلدون أكثر مفكر، ومؤرخ عربي، حظي بالشهرة، وذيوع الصيت.

وبعد ثلاثين سنة تقريباً، من صدور كتاب ساطع الحصري، أصدر محمد عابد الجابري كتاباً تحت عنوان «فكر ابن خلدون - العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي»، وفصّل في مقدمته ما أجمله ساطع الحصري في كلامه السابق، وأطلق على موضوع ابن خلدون، الصفة التي أطلقها الحصري «مبتذل معاد!»؛ فقال تحت عنوان «ابن خلدون موضوع مبتذل معاد!»: «إن مقدمة ابن خلدون قد قُتلت بحثاً ودرساً؛ فكم من أطروحة قُدمت في هذا الموضوع في الجامعات العربية وغير العربية، وكم من كتاب ظهر هنا وهناك؛ ليقدم للقارئ العربي وغير العربي فلسفة ابن خلدون

(1) ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، مكتبة الخانجي، مصر، 1961، ص1.

الاجتماعية والتاريخية، علاوة على العديد من المقالات في الحوليات والجرائد. إلى درجة أن الباحث اليوم، قد لا يتمكن مهما أوتي من صبر وأناة وواسع اطلاع، من استقصاء كل ما كُتب ونُشر حول ابن خلدون، بَلْهَ أن يُقدم في الموضوع جديداً!»[1].

وما جاوز الجابري في رأيه السابق حد الإنصاف، وتقرير الواقع؛ ذلك أنه ليس بمقدور أي باحث، أو قل إن شئت، ليس بمقدور فريق بحثي، أن يحصي كل ما كتب عن ابن خلدون في العربية، في الدراسات الإسلامية، والاجتماعية، والتاريخية، والفلسفية، والاقتصادية، والقانونية، والتربوية. لقد كتب الباحثون العرب عن ابن خلدون الطم والرم الذي لا يحصى عدده، حتى صار أكثر ما يُكتب عنه في العربية مكروراً ومعاداً، يصدق فيه قول الشاعر العربي المخضرم كعب بن زهير بن أبي سلمي:

ما أرانا نقول إلا معاراً ومعاداً من قولنا مكرور

لكن الكلام عن ابن خلدون، هذه المرة، لن يكون معاداً أو مكروراً، بل سيكون كله أو جله جديداً على القارئ العربي، الذي سيجد نفسه أمام دراسة جديدة غير مألوفة عن ابن خلدون، يطلع من خلالها على التأثير الكبير الذي تركه ابن خلدون في المؤرخين والمفكرين الترك، من العثمانيين والمعاصرين. وكما أن هناك دراسات أدبية مقارنة، فإن لك أن تطلق على هذه الدراسة أنها دراسة فكرية مقارنة، تستجلي وجوه التلاقي بين الفكر العربي والتركي، في القرون الخمسة الأخيرة، من خلال رصد ما تركته مقدمة ابن خلدون من تأثير في المؤرخين العثمانيين، وفي الفكر الاجتماعي، والأخلاقي، والمشتغلين بتصنيف العلوم في الحقبة العثمانية، وفي الفكر السياسي في الحقبة العثمانية، والمعاصرة.

لقد أضحت فلسفة ابن خلدون التاريخية، مدرسة في كتابة التاريخ عند المؤرخين العثمانيين، بدءاً من القرن السادس عشر الميلادي؛ فتراهم ينوهون بها في مقدمة تواريخهم، ويقتبسون مما جاء فيها عن تعريف علم التاريخ، ووظيفته، وصفات المؤرخ، وغير ذلك، ويحاولون محاكاة منهجه في كتابة التاريخ. كما تركت فلسفته

(1) محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون - العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط9، 2011، ص7.

الاجتماعية، وآراؤه في التربية، تأثيراً واضحاً في المهتمين بقضايا المجتمع والتربية في الحقبة العثمانية. أما فكره السياسي، فتأثيره جلي في مفكري الحقبة العثمانية، والمفكرين المعاصرين في تركيا.

وإذا كان جل ما جاء في هذا الكتاب، جديداً على القارئ العربي، فإن قدراً لا بأس به، مما جاء فيه يعتبر جديداً أيضاً على الدراسات التركية. ذلك أن الباحثين الترك الذين درسوا تأثير ابن خلدون في الفكر التركي، درسوا فقط تأثيره في الفكر العثماني، ولم ينتبه أحد منهم إلى أن المفكرين الإسلاميين المعاصرين في تركيا، يعتبرون امتداداً لمفكري الحقبة العثمانية في تأثرهم بالفكر الخلدوني. فرغم أن ما كتب بالتركية عن ابن خلدون من أبحاث ومقالات، وكتب، وأطروحات جامعية، في مجالات علمية عديدة؛ تاريخية، واجتماعية، وسياسية، وفلسفية، وقانونية، واقتصادية، وتربوية، لا يمكن حصره -تماماً كما هو شأن الدراسات العربية الخلدونية-، فإنك لا تجد بحثاً واحداً في التركية يتناول تأثير ابن خلدون في الفكر التركي المعاصر. ومن ثم، فإن ما رُصِدَ في هذا الكتاب من تجليات للفكر الخلدوني في كتابات المفكرين المعاصرين في تركيا، يعتبر جديداً على الدراسات التركية.

أما مصطلح الخلدونية، الذي وُضع في عنوان هذا الكتاب، فهو ليس جديداً في الدراسات العربية، وليس جديداً كذلك في الدراسات التركية. ويعتبر شيخ دارسي ابن خلدون في الدراسات التركية ضياء الدين فخري فندق أوغلي (fındıkoğlu z. fahri) أول من استخدم مصطلح الخلدونية في تركيا، في مقالة علمية رصينة عن ابن خلدون، نشرها سنة 1953م، وجعل عنوانها «الخلدونية في تركيا Türkiye'de ibn Haldunizm»، وصار بعد ذلك مصطلحاً شائعاً في الدراسات الخلدونية في تركيا. ولعل الذي أغرى ضياء الدين فخري باستخدام هذا المصطلح، هو أن فلسفة ابن خلدون التاريخية والاجتماعية، تعتبر مدرسة فكرية لدى المؤرخين والمفكرين العثمانيين. كما أن الدراسات الخلدونية في تركيا المعاصرة، تعتبر ظاهرة بحثية؛ لأن ابن خلدون، ومقدمته موضوع له رواج كبير، في البحث العلمي في تركيا، داخل الجامعات التركية، وخارجها، وفي المؤتمرات، والندوات، والصحف، والمجلات.

وهو موضوع للبحث في الدراسات الإسلامية، والقانونية، والفلسفية، والتاريخية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتربوية، كما ذكرنا من قبل. كما أنه ليس حكراً على باحثين ينتمون لتيار فكري معين، أو أيديولوجية معينة، بل هو موضوع مشترك في كتابات الليبراليين، والقوميين، والإسلاميين. فكلهم على اختلاف مشاربهم يجدون في ابن خلدون ومقدمته جانباً يحظي باهتمامهم.

وتقع مقالة ضياء الدين فخري في إحدى عشرة صفحة، وموضوعها هو تأثير ابن خلدون في المؤرخين العثمانيين. وفيها يعرض المؤلف في إيجاز للتأثير الواضح الذي تركته مقدمة ابن خلدون في المفكر والمؤرخ العثماني حاجي خليفة المعروف في تركيا بـ (كاتپ چلبي 1609-1657م)؛ وذلك ما يبدو واضحاً في موسوعته (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، وفي رسالته الإصلاحية (دستور العمل لإصلاح الخلل). ويذكر أيضاً أن المؤرخ العثماني مصطفى نعيما (....- 1716م) متأثر في تاريخه بتعريف ابن خلدون للتاريخ، وبنظرية الأطوار الخمسة للدولة. ويذكر من المؤرخين العثمانيين الذين تأثروا بالمقدمة أيضاً منجم باشي (أحمد بن لطف الله ....- 1702م) في تاريخه (جامع الدول)، وشيخ الإسلام پيري زاده (محمد صاحب أفندي 1674-1749م) أول من ترجم مقدمة ابن خلدون إلى العثمانية، والمؤرخ خير الله أفندي (1817-1866م)، وعبد اللطيف صبحي باشا (1818-1886م)، والمؤرخ أحمد جودت باشا (1822-1895م)[1].

وقد ترجم ساطع الحصري تلك المقالة، ترجمة تلخيصية إلى اللغة العربية، ووضع ترجمته ضمن كتابه السابق ذكره (دراسات عن مقدمة ابن خلدون)، في خمس صفحات من الصفحة رقم 615 حتى الصفحة رقم 620. وجعل عنوانها «تأثير ابن خلدون في مؤرخي الترك ومفكريهم»؛ وتعتبر تلك الترجمة هي أول ما كتب في العربية عن الخلدونية في تركيا، ورغم أنها شديدة الإيجاز، فإنه يحمد للحصري أنه نقل إلى العربية ملخص تلك المقالة! ليطلع الدارسين العرب على وجه من وجوه التلاقي الفكري بين العرب والترك. وقد لخص علي عبد الواحد وافي ما كتبه ساطع الحصري عن تأثير ابن خلدون في مؤرخي الترك ومفكريهم، في صفحتين ونصف في

(1) Fındıkoğlu z.fahri:Türkiye'de ibn Haldunizm, Osman yalçın Matbaası,ist 1953.s153-163.

دراسته التي صدر بها تحقيقه لمقدمة ابن خلدون[1].

وفي سنة 1973م، أصدر المستشرق الأمريكي، إنجليزي الأصل برنارد لويس كتاب (الإسلام في التاريخ -الأفكار والناس والأحداث في الشرق الأوسط- ıslam in History – ıdeas, people and Events in the Middle East)، وأورد فيه مقالة شديدة الإيجاز في أربع صفحات ونصف، تحت عنوان «ابن خلدون في تركيا»، اختصر فيها مقالة ضياء الدين فخري، رغم تعمده عدم الإشارة إليه. فتحدث عن تأثير ابن خلدون في كاتب چلبي، ونعيما، ومنجم باشي، وپيري زاده، وجودت باشا. وقد نوه فيها بفضل العثمانيين على الغرب؛ لأنهم كانوا الوسيط الذي عرف المستشرقون من خلاله ابن خلدون ومقدمته[2].

ويعتبر أجدر أوقومش – Ejder Okumuş، وهو أستاذ جامعي بكلية الإلهيات جامعة التاسع من سبتمبر بتركيا، الباحث التركي الثاني، بعد ضياء الدين فخري، الذي اهتم بدراسة الخلدونية وتجلياتها في كتابات المؤرخين والمفكرين العثمانيين. فتناول ذلك الموضوع في عدة أبحاث متفرقة، جمعها بعد ذلك في كتاب تحت عنوان «ابن خلدون بعين عثمانية - Osmanlı'nın Gözüyle ibn Haldun» ونشرت دار «iz» الطبعة الأولى منه سنة 2008م.

وهو كتاب متوسط الحجم، يقع في مائة وست وسبعين صفحة، من القطع المتوسط، ويتألف من مقدمة، وقسمين خصص القسم الأول منهما للتعريف بابن خلدون، وحياته، وقيمته العلمية عند العثمانيين، وفي الغرب، وخصص القسم الثاني للحديث عن تأثير ابن خلدون في الفكر العثماني. وفيه فصل القول عن تأثير فكر ابن خلدون في كثير من المؤرخين والمفكرين العثمانيين، مثل: حافظ العجمي (ت957هـ/ 1550م)، وقينالي

(1) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، تحقيق ودراسة علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، ج7، ص262-264.

(2) Bernard leuis: Islam in History- ideas,people and events in the middle east,open court,Chicago and la sale,Illinois,2001,pp 233-238.

وقد تَرجَمَ د. مدحت طه هذا الكتاب إلى العربية تحت عنوان (الإسلام في التاريخ)، ونشرته دار آفاق للنشر والتوزيع بالقاهرة سنة 2018م. وننبه إلى أن ترجمة معظم أسماء الأعلام، والأماكن، والكتب الواردة بتلك الترجمة بحاجة إلى مراجعة وتصحيح.

زاده علي أفندي (1510-1572م)، وطاشكبري زاده عصام الدين أحمد أفندي (1495-1561م)، ومصطفى جنابي (1540 تقريبا-1590-1591م)، وگليبولي مصطفى عالي (1541-1599/1600م)، وويسي (1561-1627/1628م)، وكاتب چلبي (1609-1657م)، وقوچي بك (في القرن السابع عشر)، وهزارفن حسين أفندي (ت1691م)، ومنجم باشي درويشي (1631/32-1702م)، ومصطفى نعيما (1655-1716م)، والدفتردار صاري أحمد باشا (ت1717م)، وشيخ الإسلام پيري زاده (1674-1749م)، وأحمد رسمي أفندي (1700-1783م)، وأحمد وفيق باشا (1813-1891م)، وخير الله أفندي (1817-1866م)، وعبد اللطيف صبحي باشا (1818-1885/1886م)، ومدحت باشا (1822-1884م)، وجودت باشا (1822-1895م)، وخير الدين باشا التونسي (1822-1890م)، ونامق كمال (1840-1888م)، وعبد الرحمن شرف (1853-1925)، ومعلم جودت (1883-1935م)[1].

وإذا كان يُحمد لضيا الدين فخري، أنه أول من لفت أنظار الباحثين إلى دراسة التأثير الواضح لابن خلدون في المؤرخين، والمفكرين العثمانيين، فنقل عنه ساطع الحصري في العربية، وبرنارد لويس في الانجليزية، فإنه يُحمد لأجدر أوقومش، أنه أول باحث تركي التقط إشارة ضياء الدين فخري، وعكف على دراستها دراسة متأنية عميقة، اشتملت على تفاصيل دقيقة لتأثير ابن خلدون في التاريخ والفكر العثماني، ولو أنه أضاف لكتابه هذا قسماً ثالثاً عن تأثير ابن خلدون في الفكر التركي المعاصر، لكان قد أنجز كتاباً جامعاً قيماً. ولعل الذي منعه من ذلك، هو تأثره بالإطار الزمني الذي حدده أستاذه ضياء الدين فخري في مقالته؛ وهو الحقبة العثمانية فقط. ويحتمل أيضاً أن يكون الأثر الخلدوني في كتابات المفكرين الإسلاميين المعاصرين، أقل وضوحاً من نظيره عند العثمانيين، ويحتاج إلى جهد كبير لاستبيانه، وجمعه، ونقده. وذلك أمر شاق يحتاج إلى صبر وأناة.

تلك هي الدراسات السابقة للموضوع في العربية، والإنجليزية، والتركية. وهي في العربية ليست أكثر من خمس صفحات تحوي ترجمة تلخيصية لمقالة ضياء الدين فخري التركية. وهي في الإنجليزية على شاكلة سابقتها العربية في حجمها، وفي اعتمادها على

(1) Ejder Okumuş: Osmanlı'nın Gözüyle ibn Haldun,iz yayıncılık,1.B,ist, 2008,ss.68-137.

المقالة التركية نفسها. وفي التركية عبارة عن المقالة الأم لضياء الدين فخري، والدراسة العميقة لأجدر أوقومش وهما -رغم اختلافهما كماً وكيفاً- يجمعهما إطار زمني واحد، هو الحقبة العثمانية فقط. ورغم المادة العلمية الثرية، وأصالة مراجع دراسة أوقومش، ومصادرها، فإنها لم تستوف كل جوانب التأثير الخلدوني في الحقبة العثمانية. فقد فاتها دراسة تأثير رؤية ابن خلدون، ومنهجه في تصنيف العلوم، في العلماء العثمانيين المشتغلين بتصنيف العلوم، مثل طاشكبري زاده، وحاجي خليفة، وساجقلي زاده (ت1145هـ). وفاتها كذلك دراسة منهج ابن خلدون في التربية، وتأثيره في «أخلاق علائي» لعلاء الدين علي أفندي قينالي زاده، المعروف عند العرب بابن الحنائي.

ومن العجيب، أن تلك الندرة الشديدة في الدراسات الخاصة بتأثير ابن خلدون في مؤرخي الترك، ومفكريهم، يقابلها ما لا يُحصى من الدراسات التركية عن ابن خلدون، ومقدمته في مجال الدراسات الإسلامية، والتاريخية، والاجتماعية، والفلسفية، والقانونية، والاقتصادية، والتربوية. وليس بمقدور أحد، مهما أوتي من صبر، وأناة -كما قال الجابري- أن يحصي ما كُتب باللغة التركية عن ابن خلدون. ولا شك أن ذلك السيل من الدراسات التركية عن ابن خلدون، مشكلة بحثية، لا تقل في صعوبتها عن مشكلة ندرة الدراسات. ذلك أنها تفرض على الباحث التحلي بالصبر الجميل، والنفس الطويل، ومضاعفة الجهد؛ حتى يتمكن من قراءة القدر الأكبر من تلك الدراسات، وتحديد الغث والسمين منها، وانتخاب المادة العلمية الجيدة منها، وتصنيفها وفقاً لقضايا الموضوع الذي يدرسه.

غير أن الصعوبة الأكبر، تتمثل في مقدمة ابن خلدون نفسها، ومحاولة فهمها، وإدراك معانيها الحقيقية. فالمقدمة متشعبة القضايا، ومتشابكة الأفكار، ولغتها ملبسة أحياناً. وذلك ما جعل الجابري يشكو من صعوبة فهم المقدمة، فيقول: «إن في المقدمة فقرات وعبارات تحتمل أكثر من معنى، وفصولاً من الصعب تجاهل ما بينها من تناقض، أو على الأصح ما يبدو أنه كذلك. فكثيراً ما يفهم القارئ من بعض فقرات المقدمة معنى ما، حتى إذا أعاد قراءتها، وجد نفسه أمام معنى آخر، مخالفٍ أو مناقضٍ للمعنى الأول!...ليس الشيطان وحده هو الذي يستطيع أن يجد في المقدمة ما يرضيه

أو يسخطه، بل إن المؤمن، والملحد، والكاهن، والمشعوذ، والفيلسوف، والمؤرخ، ورجل الاقتصاد، وعالم الاجتماع..كل أولئك يستطيعون أن يجدوا في المقدمة ما يبررون به أي نوع من التأويل يقترحونه لأفكار ابن خلدون»[1].

هكذا اتسعت مائدة الفكر الخلدوني في المقدمة، لكل المشتغلين بالدراسات الإنسانية؛ الكل طعم منها، وتذوقها ما شاء له ذوقه، والكل رآها ثمرة لكل قاطف، وطُرفة لكل خاطف، وينطبق عليها ما قاله القاضي الفاضل عن الجاحظ: «وأما الجاحظ، فما منا معاشر الكُتاب إلا من دخل داره، أو شن على كلامه الغارة، وخرج وعلى كتفه الكارَة»[2].

وقد زادت كثرة تأويلات المقدمة، في صعوبة الاهتداء إلى المعاني الأصوب، والأدق للأفكار التي ناقشها ابن خلدون في مقدمته. أضف إلى ذلك داءً فكرياً عضالاً، هو داء الغلو، ذلك الداء الذي جعل أغلب دارسي ابن خلدون يغالون في مدحه، ويصعدون به إلى عنان السماء، ويجعلونه عبقري التاريخ، وفيلسوفه، ومبتدع علم الاجتماع، وفيلسوفاً، ومفكراً سياسياً، وعالم اقتصاد، ومبتدع المادية التاريخية، ومبتدع نظرية النشوء والارتقاء، وفقيهاً قانونياً، وعالماً في أصول التربية، ومصنفاً للعلوم.

وذلك الداء أيضاً، هو الذي جعل بعض دارسي ابن خلدون يغالون في قدحه، ويسلقونه بألسنة حداد، ويهيلون عليه التراب علمياً، وإنسانياً. فهذا محمود إسماعيل يقول عنه: «إن حياة ابن خلدون سلسلة متصلة من التآمر والإحن، ومن الأمجاد والمحن؛ ذلك بسبب طموحاته السياسية التي جعلت منه مكيافيللياً...كما أنه أغار على تراث إخوان الصفا، وانتحله لنفسه، وأنه قد آن الأوان لإنصافهم بعد مؤامرة «الصمت المعرفي» التي استمرت عدة قرون»[3].

---

(1) محمد عابد الجابري: المرجع السابق، ص8.

(2) الجاحظ: كتاب التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد كمال زكي، ط1، المطبعة الأميرية- القاهرة، 1914، ص29.

(3) د. محمود إسماعيل: نهاية أسطورة – نظريات ابن خلدون مقتبسة من رسائل إخوان الصفا، دار قباء، القاهرة، 2000، ص 42-52.

وانظر في المعنى ذاته:

- د. محمود إسماعيل: إشكالية المنهج في دراسة التراث، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004، ص120-125.

وتعتبر تلك الدراسة المتواضعة حجر الأساس للدراسات الفكرية المقارنة في ميدان الدراسات الشرقية. ولئن كتب لها أن تلفت نظر الباحثين الشباب إلى أهمية دراسة أوجه التلاقي بين الفكر العربي والتركي بخاصة، وبين الفكر العربي والشرقي بعامة، فستكون قد أسست لفرع جديد من فروع الدراسات الشرقية، هو الفكر المقارن. وهو فرع جديد في الدراسات الشرقية، لا يقل أهمية عن الدراسات الأدبية المقارنة، إن لم يكن أهم.

إن مسائل الفكر الشرقي المقارن مفرقة في أبوابها في علوم كثيرة، من تاريخ، وفلسفة، واجتماع، وسياسة، واقتصاد، ودراسات إسلامية، ودراسات تربوية، ودراسات قانونية، ودراسات جغرافية، وفولكلورية. فاضطلعت تلك الدراسة بجمع ما تفرق من مسائل هذا العلم في العلوم الأخرى. وانتهجت منهج الاستقراء، والتحليل، والاستنباط؛ فكانت تشرح ما استغلق حيناً، وتصوب أخطاءً سابقة حيناً، وتستكمل ما نقص حيناً، وتستخرج آراءً جديدة حيناً آخر، وتقارن في كل الأحيان. وتتألف الدراسة من مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول هي:

الفصل الأول: الخلدونية في الفكر التاريخي العثماني.

الفصل الثاني: الخلدونية في الفكر السياسي التركي.

الفصل الثالث: الخلدونية في الفكر الاجتماعي التركي.

الفصل الرابع: تصنيف العلوم وتعليمها عند ابن خلدون والببليوجرافيا العثمانية.

وأفضل ما أختم به تلك المقدمة هو ما ختم به ابن خلدون تقديمه لمقدمته، فقال: «وأنا من بعدها موقف بالقصور، بين أهل العصور، معترف بالعجز عن المضاء في مثل هذا القضاء، راغب من أهل اليد البيضاء، والمعارف المتسعة الفضاء، في النظر بعين الانتقاد، لا بعين الارتضاء، والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء؛ فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة، والاعتراف من اللوم منجاة. والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وهو حسبي ونعم الوكيل».